السلطة الرمزية للولي في مخيال مُجتمع المغرب الإسلامي

الباحثة :سمية مقورة جامعة البليدة 02 المشرف د: عبدالقادر بوعقادة

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور _ جامعة يحي فارس بالمدية _

مقدمة:

تميز المجتمع المغاربي في العصر الوسيط بارتباطه الوثيق بالأولياء واعتقاده بهم، هؤلاء الذين أصبحت لهم قاعدة شعبية كبيرة داخل المجتمع نتيجة حضورهم في مختلف الفعاليات الاجتماعية، وقدراتهم الخارقة على تجاوز المكان والزمان، والحاضرة في أزمنة الإكراهات والأزمات الاجتماعية.

ولا غرو من كل هذا أن يكتسب الولي سلطة رمزية في المتخيل المغربي، غيرأن السؤال المطروح هو:

هل اكتسب الولي سلطته الرمزية تلك من خلال الكرامات فقط، أم أن هنالك روافد أخرى ساهمت في ترسيخ سلطته في المتخيل الجمعي؟

أو بعبارة أخرى ما هي الآليات والمعطيات التي صنعت للولي سلطته الرمزية؟

للإجابة على الإشكاليات المطروحة في المقدمة عمدنا إلى الاشتغال على النصوص المنقبية لاستجلاء الآليات التي صنعت للولي سلطته الرمزية في مخيال مجتمع المغرب الإسلامي، وعملنا على رسمها وتحديد أبعادها على الصعيدين الذهني و السلوكي، وكذا قمنا بتتبع مُختلف الرموز التي أصلت لصورة الولي في المتخيل الجمعي.

_كاريزما الولي:

ساهمت كاريزما الولي في إضفاء هالة مقدسة حوله في الذهنية المغربية، ولكن لابد من أن نشير إلى أن اكتسابه لتلك الكاريزما كان نتيجة تفاعل عدة عوامل.

_ التقشف في المأكل والملبس:

حرص الأولياء في المغرب الإسلامي على سلك طريق اتجاه الزهد والتقشف سواء في المأكل أو الملبس؛ فمن ناحية اللّباس سعى الصوفي إلى أن يكون لباسه بسيطاً جداً مثل لباس عامة المجتمع بل وأحياناً يكون أحقر من لباس

العامّة، فهذا أبو محمد عبد السلام التونسي كان يلبس كساءً خشناً[1]، وآخر كان يرتدي خرقة من الصوف، ،أما لباس أبي يعزى يلنور فكان عبارة عن ثوب من تليس وبرنوس مُرقّع[2].

وكذلك كان الشأن بالنسبة للأكل الذي كان بسيطاً جدًا يقتصر فقط على ما يسد رمق الولي، مع التأكيد على مصدره الحلال، وحسبُنا من الأدلة حول هذا الشأن ما ذكره البادسي عن الولي إبراهيم بن عيسى بن أبي داوود (ت650هـ) الذي اقتصر على أكل الحلال من الطعام[3]، كما نُقل عن الولي أبي زكرياء يحي بن أبي علي الزواوي (ت611هـ) أنه كان يأكل فقط البقول وإذا اشتهى اللحم اصطاد الأسماك[4]، نفس الشيء كان للولي أبي محمد خميس بن أبي زرجالرجراجي الأسود، كان لا يأكل إلا الزرع الذي يزرعه بيده، وحُدث عنه أنه[5]"لما استحق فدّانه الحصاد تواصى فتيان القرية على حصاده غدوة دون أن يُعلموه، فأقبل أبو محمد وقد رآهم قد حصدوا طائفة من فدانه فقال: كفوا بارك الله فيكم، فقالوا له: ما حصدنا إلا طائعين متبرعين فقال لهم: يكفيكم ما حصدتم فعسى أن تجمعوه فجمعوا ما حصدوا، وحازه بموضع واحد فعزله وتصدّق به وكره أن يأكل ما عملوه من غير أجرة"[6].

يعكس هذا النص سعي الولي المتواصل إلى الأكل الحلال الذي يكون عن طريق مجهود يده، وهذا ما كان يحصل مع الولي أبي محمد عبد السلام التونسي الذي كان يأكل الشعير الذي يحرثه بنفسه، وإذا اشتهى اللحم أكل السلاحف، نفس الشيء كان للولي أبي محمد عبد الله المليجي (توفي قبل 540هـ) الذي كان قوته عبارة عن عصيدة الشعير بدون ملح[7]، وآخر أقام ثلاثين سنة لم يأكل فيها أي طعام وإنما كان يقتات من النباتات[8].

---

[1]أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار ابي العباس السبتي، تحقيق: أحمد التوفيق، ط2، الرباط: منشورات كلية الآداب بالرباط، 1997، ص110.

[2]نفسه، ص181 ، 216.

[3]عبد الحق بن اسماعيل البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق: سعيد اعراب، ط2، الرباط: المطبعة الملكية، 1993، ص60.

[4]أبو العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله، عنوان الدراية فيمن عُرف في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، ط2، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1979، ص127.

[5]التادلي، التشوف، ص113.

[6]نفسه

[7]نفسه، 110،145.

[8]البادسي، المقصد الشريف، ص71.

والمدقق للنصوص السابقة الخاصة بمأكل وملبس الأولياء سيجد أن لها أبعادًا ورموزًا عدة ترمي إليها، إذ أن الولي وباقتصاره على لبس الثياب الخشنة والبسيطة وعلى القليل من الطعام يُفهم منه أنه استطاع أن يكبح شهواته الدنيوية وأن يبتعد عن مُغريات المأكل والملبس، هذا الموقف التقشفي يعكس أيضاً محاولة الولي قدر الإمكان أن يكون بشكله قريباً من العامة والفقراء ليُحس بمُعاناتهم واحتياجهم، وهذا طبعًا له دور كبير في استقطاب محبّة النّاس له لأنه جزء منهم ويُعاني ما يُعانون ويُحسُّ بما يحسونه، وهذا ما كرّس لمصداقيته وبالتالي تقوية صورته في المتخيل المغربي.

وإلى جانب الزهد والتقشف كان للعلم دور في صنع كاريزما الولي، وبغض النظر عن بعض الأولياء الذين لم يكن لهم تعامل مع تعاطي العلم، كان للعديد من هؤلاء خلفية علمية خصوصاً ما يتعلق بالعلوم الدينية، وفي هذا الشأن يجوز لنا أن نذكر الصالح أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم السلجماسي (ت ق7هـ) الذي وصفه الغبريني بأنه كان "قويًا في علم التوحيد"[1]، وكذلك كان الولي إبراهيم بن موسى المصمودي التلمساني والذي أخذ العلم عن الإمام موسى العبدوسي، ومحمد الآبلي، كما قرأ عن أبي عبد الله الشريف التلمساني[2]، واشتُهر كل من أبي زكرياء يحي بن أبي علي الزواوي (ت611هـ)، وأبي يوسف يعقوب بن يوسف المنجلاتي الزواوي (ت690هـ) وأبي عبد الله محمد بن علي القصري بعلوم الفقه وأصول الدين والحديث وعلم العقائد[3]، كما عُرف عن أبي مدين شُعيب أنه "حاز ونال أسرار المعارف"[4].

وإلى جانب ما سبق كان لانقطاع الأولياء لأجل التعبد الدور الأكبر في تكوين وتشكيل كاريزما الولي، هذا الأخير وبانقطاعه عن شؤون الدنيا وقضاء جُل وقته في العبادة أظهره بأنه شخصية مُتعالية، تقرّب إلى الله من خلال العبادة والمجاهدات التي بدورها سترتقي به إلى مقام الولاية، وعلى هذا الأساس يمكن ملاحظة الاجتهاد الكبير والشّاق الذي يبذله الأولياء في عباداتهم اليومية.

---

[1] عنوان الدراية، ص123.

[2] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف: عبد الحميد عبد الله الهدامة، ط1، طرابلس: كلية الدعوة الإسلامية، ج1، ص54_55.

[3] الغبريني، عنوان الدراية، ص128،186،265.

[4] التنبكتي، نيل الابتهاج، ج1، 193.

فهذا الولي أبا محمد خميس بن أبي زرجالرجراجي الأسود لا ينام لا ليلاً ولا نهارًا ما ينيف عن العشرين سنة، لأنه كان مُنتبهاً إلى الصلاة، ويأخذ غفوة فقط بعد طلوع الشمس[1]، ونُقل عن الولي بن أدوناس أنه "كان يصلي صلاة الصبح بوضوء العشاء الأخير، ويقضي ليله في العبادة ولا ينام"[2]، في حين كان الحاج إبراهيم بن عيسى (ت650هـ) لا يتوقف أبدا عن "تلاوة القرآن ليلاً ولا نهارًا، لا في قيامه ولا في قعوده ولا في مشيه"[3].

_سلطة الكرامة:

إن الفاعلية الاجتماعية للولي من خلال كراماته الحاضرة في كل أزمنة الفاقة والمرض والجوع، ساهمت في ترسيخ سلطته الرمزية في المتخيل المغربي، ويظهر هذا بشكل جلي من خلال النصوص المنقبية التي سنسوقها في هذا السياق:

يورد التادلي منقبة لأبي زكرياء بن يونان الصنهاجي (ت537هـ) جاء فيها أن أهل تلمسان استسقوا به فسقوا[4]، وبجانب المنقبة السابقة هناك أخرى تشبهها مُتعلقة بالشيخ الولي أبا يعزى يلنور الذي اشتكى له الناس انحباس المطر عنهم[5]، "فنزع شاشية من العزف كانت على رأسه ورمى بها وبقي رأسه كأنه ثغامة أبيض، ثم تجرّد من برنوسه ورمى به وأرسل دموعه وبقي يتضرع باللسان الزناتي: أيمزغنأيمزغن، أدْ ران أنزار، أنزار، معناه يا ضيفي و يا سيدي ومولاي هؤلاء سادتي طلبوا مني أن أستسقي لهم وما قدري؟... ومازال يبكي ويتضرع حتى غيّمت السماء وأمطروا فيالحين"[6].

ونُضيف منقبة أخرى يمكننا أن نُضيفها إلى قدرات الولي أبي يعزى والتي ترتبط بقدرة الولي على شفاء الأمراض، جاء فيها أنه _أي أبي يعزى_ كان يشفي كل من كانت به عاهة أو مرض بمجرد أن يلمس موطن العاهة أو يتفل عليها ويدلكها، فتذهب في الحين[7]. كما كان يؤتى بالمجانين إليه فيقول للمجنون "أزرْ" أي أنظر إلى كفي، ويأمر الجن بالخروج ويتعافىالمجنون[8].

---

[1] التادلي، التشوف، ص113.

[2] البادسي، المقصد الشريف، ص59.

[3] نفسه، ص62.

[4] التشوف، ص124.

[5] أحمد التادليالصومعي، المعزى في مناقب ابي يعزى، تحقيق: علي الجاوي، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1996، ص127.

[6] نفسه، 128.

[7] نفسه، ص 123.

[8] أبو العباس العزفي، دعامة اليقين في زعامة المتقين _مناقب الشيخ أبي يعزى_، تحقيق: أحمد توفيق، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1989، ص39.

وبشكل عام عكست الكرامات السابقة الذكر الارتباط الروحي بين الولي والمجتمع، وعكست تطلعاته ومدى إيمان ساكنة المغرب الإسلامي بقدرة الولي على إيجاد حلول لمشاكلهم.

ولا شك أنه ارتباط وتواشج الخطاب الكرامي مع الخطاب الديني قد جعل هذا الأخير _الخطاب الديني_ يُضفي القداسة على البُعد الكرامي، وقدّمه كمُعطى ديني مُقدّس، عكس التأييد الإلهي للولي صاحب الكرامة، ويمكن القول إنه وفق هذا التصور قد ساهمت الكرامة في ترسيخ السلطة الرمزية للولي في الذهنية المغاربية، وجعلته ذا قدرة عجائبية خارقة يتمكن من خلالها على تحسين أوضاع المجتمع وطرح حلول لمشاكله.

وبعيدًا عن المجتمع بمقدورنا أن نُشير أيضا إلى أن سلطة الكرامة قد جعلت من الولي سلطة وقوة موازية لقوة السُّلطة الحاكمة والفقهاء، وجعلت له قاعدة شعبية كبيرة داخل المجتمع وقيّضت له سُلطة رمزية روحية في المتخيل المغربي.

_سلطة الدعاء:

آلية أخرى يمكن القول عنها أنها عملت على إرساء السُّلطة الرمزية للولي في الذهنية الجمعية المغاربية ألا وهي الدعاء، الذي جعله الولي سلاحاً ضد كل من يُمارس الظلم والتعدي على الفقراء والضعفاء، وفي هذا السياق يمكن لنا أن نستحضر بعض الأدلّة من المدونة المنقبية، حيثُ حُدِّث عن أبي الحسن نجا بن عبد الله (ت595هـ) أنه اشتكى إليه أهل سلا[1]بأقوام استأصلوا ما في كرومهم من العنب، فقال لهم يكفيكم الله!! فبعث الله في كرومهم دويبة تُعرف بالرُتيلة فكل من دخل فيها تلسعه فيموت من حينه"[2].

نص آخر يتعلق بالولي عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الرحمان اليعقوبي الذي ذهب إلى قبيلة "لترارة" ليُصلح بين أهلها، فبادره رجل منهم قائلاً: لا نصطلح، فدعا عليه الصالح وقال له: "الله يعطيك الكي"، وفي اللحظة تلك مرض الرجل وأصبح يصيح ظهري بطني ويكوي حتى مات[3].

[1]التادلي، التشوف، ص358.

[2]نفسه.

[3]أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، اعتنى به: محمد بن أبي شنب، الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1908، ص134.

وفي سياق الغصب اعتدى أحد السارقين على الصالح أبي عمران موسى وقام يهدده أنه سيقتله إن لم يسلمه كل ما عنده من مال، فدعا عليه الولي فجُنّ الرجل وظلّ لعدة أيام على تلك الحال يُعاني من نوبات الصرع ويخنق نفسه، ولما زال عنه ذلك فرّ خائفاً[1]، واشتكى أهل أغمات إلى الولي أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الهواري (ت581هـ) رجلاً يتجسس عليهم في أملاكهم، فدعا عليه، ولم تمر ثلاثة أيام حتى ذُبح ذلك الرجل من طرف قوم بات معهم[2].

قصة أخرى حدثت مع الصالحة عائشة المنوبية حينما اعتدى بعض الفقهاء على تابعها فغضبت للأمر وقالت: "والله ما بقي لهم غير ثلاث ساعات وتُمحى أسماؤهم من الزمام"، فما مضت إلا ساعتان وكان الأمر الذي قالت[3].

لا ريب إذن حسب ما تقدم من نماذج واستشهادات سابقة أن الدعاء قد جعل من الولي ملاذاً للمستضعفين وفي نفس الوقت استُعمل كسلاح لترهيب الولاة والجُباة والأمراء، ويقودنا هذا الطرح إلى القول بأن الدعاء له عدّة أبعاد ذات مضامين قيمية، حيث عمل الولي على إرساء قيم العدل والصلاح، والقضاء على الجور والظلم من خلال دعائه المستجاب الذي استعمله أيضا لاستقامة الحكام والولاة واللصوص وقاطعي الطريق، وهذا ما دعم السلطة الرمزية للولي حيث جسّده كمُصلح اجتماعي وقبلة للناس يشتكون له ما وقع عليهم من ظلم وجور رجاء رفعه عليهم من خلال ذلك الدعاء.

وفي هذا السياق تورد إحدى الباحثات نصاً منقبياً دعا إلى وجوب اللجوء إلى الولي مضمونه: " إذا غلت أسعاركم وقلّت أمطاركم وضعفت ثماركم وتنكّرت قلوبكم وعميت عن الرشد مسامعكم وكثُرت النميمة والغيبة في خياركم، وجارت عليكم ملوككم فالتجؤوا إلى الله بالأولياء الذين خلف ظهوركم يؤمنكم الله...مما تخافون"[4].

إن سعي المجتمع طلباً لدعاء الولي يُظهر وبشكل جلي اعترافه _المجتمع_ بحضور الولي وسلطته التي تتجلى في اصلاحاته الاجتماعية.

_سلطة البركة:

---

[1] التادلي، التشوف، ص289.

[2] نفسه، ص271.

[3] أبو العباس أحمد التادلي، مناقب عائشة المنوبية، تحقيق: محمد الكحلاوي، ط1، تونس: منشورات كارم الشريف، 2011، ص124.

[4] نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع _مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي، تونس: منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة، [د.ت]، ص317.

البركة تعني الوفرة والنماء والزيادة، وسلطانها الرمزي يؤدي إلى الاعتراف بولاية الولي[1]، إذ أن الولي وبحيازته على البركة أصبح في موقع جذب واستقطاب من طرف مُختلف فئات المجتمع وطبقاته طلباً لنيل بركة ذلك الولي، ولكي نكشف عن ذلك سنحاول تقديم مجموعة من النصوص التي تناولت تمظهرات بركة الأولياء وموقف المغاربة من البركة.

وفي هذا الصدد يروي أحدهم عن أبي الفضل النحوي أنه وجده يتوضأ ولما فرغ من وضوءه لم ينتقص من ماء الإناء وظل على حاله[2]، وفي نفس السياق روى أحدهم أنه حينما نال منه الجوع هو وأصحابه ولم يجدوا ما يقتاتون به أشار عليهم أن يذهبوا إلى الصالح الحاج إبراهيم بن عيسى بن داوود (ت560هـ)، وحينما وصلوا إليه قدّم إليهم شيئاً يسيراً من الأكل وظنوا أنه لن يكفي حتى الواحد منهم، غير أنهم أكلوا منه جميعاً حتى افرطوا في الشبع وبقي الطعام على حاله[3].

أما بالنسبة لموقف المجتمع المغربي من بركة الأولياء لنا أن نذكر أن الناس كانوا يقيمون عند باب منزل الولي أبا محمد سيدي عبد الجليل بن ويحلان (ت541هـ)، وإذا خرج يتمسحون بثيابه[4] طلباً لبركته

الأمر نفسه كان يحدث مع الشيخ أبي يعزى يلنور الذي كان الناس يقصدونه من أجل نيل البركات، فقد حُدّث عنه أن الناس استمروا في أخذ خصلات من شعره على سبيل التبرك إلى درجة أنهم قطعوا جلدة رأسه في عدة مواضع[5]، هذا النص يكشف لنا وبشكل جلي الحضور الطاغي لرمز بركة الولي في المتخيل المغربي والذي انعكس بشكل قوي على سلوكيات المجتمع الذي أصبح افراده يأتون من كل حدب وصوب لذلك الولي صاحب البركات كي ينالهم منها نصيب، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل إن بركة الولي تنتقل حتى لزواره، وهذا ما حدث مع أهل القرى المجاورين لقرية الشيخ أبي يعزى يلنور أين كان هؤلاء يتبركون بالأشخاص الذين كانت لهم زيارة للولي[6].

والجدير بالذكر أن الأمر لم يقتصر فقط على عامة المجتمع بل تعداه أيضا حتى للأمراء الذين أخذت البركة نصيبها منهم، حيث نُقل عن الولي الصالح أبو محمد عبد السلام التونسي أنه قصده أحد أمراء الدولة المرابطية في تلمسان فقال

[1] عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، الدار البيضاء: المدارس للنشر، 2014، ص56.
[2] التادلي، التشوف، ص98.
[3] البادسي، المقصد الشريف، ص62.
[4] الصومعي، المعزى، ص78.
[5] أبو عبد الله بن عبد الكريم التميمي الفاسي، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تحقيق: محمد الشريف، ط1، المغرب: كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان، 2002، ص38
[6] الصومعي، المعزى في مناقب ابي يعزى، ص134.

له الولي: ما تطلب عندي وأنا فقير وأنت أمير؟ فقال له: جئتُ لأتبرك بك وآكل من طعامك[1]. كما حُدّث عن السلطان الزيانييغمراسن أنه كان يُكثر من مجالسة وزيارة الصلحاء، وروي أنه كان يرتحل الى زيارة الولي أبي البيان واضح ليلتمس بركته والدعاء له ولذريته[2].

نص آخر متعلق بطلب بركة الولي غير أنه مخالف عن النصوص السابقة لأنه يتعلق بكائن ما ورائي _الجن_ حيث ورد في منقبة للصالح علي بن إسماعيل بن حرزهم (ت595هـ) أنه كان يحضر لمجلسه رجل لا يكلم أحدا، ويجلس وحيداً فعلم الشيخ أنه من مؤمني الجن جاء يطلب بركة مجلسه[3]، يُظهر هذا النص المكانة التي حظي بها رمز البركة في المتخيل المغربي إلى درجة إسقاطها حتى على الكائنات الميتافيزيقية والتأكيد على حضورها في العوالم الحسية وغير الحسية.

ووفق هذا كله يمكننا القول إن البركة قد شغلت حيزاً لا يُستهان به وسط المجتمع المغربي، وساهمت بشكل كبير في التأكيد على ولاية وسلطة الولي، بل حتى إنه يمكننا القول أن مفعولها يوازي مفعول الفعل الكرامي الذي يُعتبر الركيزة الأساسية التي أصّلت لسلطة الولي الرمزية، إذ أن "البركة كفعل رمزي هو ما يُغذي الولاية ويؤسس للاعتراف بها...فحضور البركة وتواشجها بالكرامة وخرق العادة هو ما يُعطي للولي سلطته ومكانته في المجتمع"[4].

والجدير بالإشارة هو أن بركة الولي تستمر حتى بعد موته، وتستقر في ضريحه الذي سيصبح فيما بعد مزاراً للناس الذين يقصدونه لقضاء حوائجهم على مختلف الأصعدة (النفسية، الصحية، التعليمية، المظلومية...)

فعلى المستوى الاستشفائي كان الناس يقصدون قبر الصالح أبي عبد الله محمد بن سعدون بن بلال القيرواني(ت485هـ) للاستشفاء به[5]، نفس الشيء كان مع الولي أبي محمد أبا يحي بن بجاتي الزناتي (ت536هـ)، والذي كان قبره مشهوراً، يأتي الناس إليه للاستشفاء بترابه[6].

---

[1] التادلي، التشوف، ص111.

[2] محمد عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان _مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمد بوعباد، الجزائر: المكتبة الوطنية الجزائرية، 1985، ص126.

[3] أبو عبد الله محمد بن عيشون الشراط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، تحقيق: زهراء النظام، ط1، المغرب: منشورات كلية الآداب بالرباط، 1997، ص60.

[4] عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء، ص44.

[5] الصومعي، المعزى، ص199.

[6] التادلي، التشوف، ص132.

ويُحدثنا ابن قنفذ عن تجربته مع قبر الصالح أبا العباس السبتي (ت601هـ) قائلاً: "ولقد وقفتُ على قبره مرات وسألت الله في أشياء يسرها لي منها سؤالي أن أكون ممن يشتغل بالعلم ويوصف به، وأن يُيسر عليّفهم عينتها، فيسّر الله علي ذلك في أقرب مدة"[1]. ويذكر آخر أنه وجد على قبر الولي أبا عبد الله محمد بن سعدون بن بلال القيرواني (ت485هـ) فقيهاً من أغمات واقفاً عليه من أجل مسألة استعصت عليه[2].

إن الصورة الرمزية المتميزة التي حظي بها قبر الولي جعلته قبلة يقصدها كل من تعرض للضغوطات الاجتماعية، فهذا قبر الولي عبد الرحيم القِنائي (ت592هـ) _كان قبره_ "يُزار ولا يكاد يخلو من زائر قاصد، أو عابر، تقصده العباد من أقصى البلاد، وتأتي إليه الخلائق من كل فج وواد، وتزدحم الناس على ضريحه مستمطرين الرحمة من عنده"[3].

والجدير بالذكر أن بركة ضريح الولي لم تشمل فقط الأحياء بل تعدته إلى الأموات، وفي هذا الصدد ورد لدى التادلي، أنه مات بفاس رجل أسرف على نفسه، وحينما دفنه أهله وانتهوا من ذلك بدأ تراب قبره يهتز حتى انكشف كفن الميت، فقال بعضهم لعلنا لم نعمق الحفر، فأخرجوه وعمقوا القبر أكثر ولكن ما لبث بعد دفنه أن حدث معه نفس الشيء، وعندما رآه الناس على تلك الحال بدأوا بالبكاء والعويل وقالوا ن الأرض لفظته ولم تتقبله، فأشار عليهم أحدهم ان انظروا إلى قبر رجل صالح وادفنوه إلى جانبه لعله يشفع فيه، ففعلوا بما اشار عليهم وبحثوا له عن قبر ولي واستقروا على أن يدفنوه بجوار الصالح أبو محمد بن محسود الهواري فهدأ التراب ولم يحدث معه ما حدث له من قبل[4]، رجل آخر رآه بعد موته بعض الصالحين في هيأة قبيحة، ثم ما لبث أن رآه أحدهم في منامه في هيأة حسنة فقال له _في منامه_ "ما أوجب لك هذا؟ قال: لما دُفن الشيخ علي بن محمد المراكشي معنا غفر الله لأهل القبر من الجانبين الشرقية والغربية"[5].

وعى هذا الأساس أصبحت قبور الأولياء مقصداً للناس يستشفون ويتبركون بها، وبهذا أضفت قداسة وسلطة على الولي الذي أصبح مرجعية مقدسة مؤثرة فاعلة داخل المجتمع.

---

[1]أبو العباس أحمد الخطيب ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، تصحيح: محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط: مطبعة أكدال، 1965، ص7.

[2]التادلي، التشوف، ص84_85.

[3]أبو علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي، طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العليّة في طبقات السادة الشاذلية، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 2005، ص83.

[4]التادلي، التشوف، ص117.

[5]البادسي، المقصد الشريف، ص75.

_سلطة المكاشفة:

رافد آخر ساهم في ترسيخ السلطة الرمزية للولي، بل وجعله يبدو في صورة مُتعالية أحيانا، وأخرى في صورة ترهيبية، ولكي نستبين هذه الفكرة سنعمد إلى الاستشهاد بعدة قرائن توضّح آلية المكاشفة التي استخدمها الولي واطّلع من خلالها على العديد من الأمور الغيبية كاقتراب الأجل، وما يُخفيه الناس في دواخلهم، وفي هذا الصدد يجوز لنا أن نستشهد بالولي أبي العباس أحمد بن محمد بن يوسف الذي طلب من أحد أصدقائه أن يذهب معه إلى المقبرة ويساعده في حفر قبر، ولما سأله عن صاحب القبر أجابه الصالح أبا العباس أنه له وبأنه سيموت في غده، وفعلاً كان ما قاله. نفس الشيء كان لأبو محمد بن وين يوفن الذي تنبأ بدنو أجله[1].

واشتُهر في هذا الأمر أبا يعزى يلنور في كل الآفاق، إذ كان يُحدث الناس بما يأكلون وما يفعلون من مناكر وغيرها، وهذا ما جعل بعضهم يستنكر عليه فعل ذلك، وهذا ما حدث مع مؤذنه الذي اشتكى لأحد زوار الشيخ وقال له: "عسى أن تُكلم الشيخ أبا يعزى أن يستر الناس ولا يفضحهم فإن الرجل جاهل لا علم عنده، فيقول للواصلين سرقت يا هذا، وزنيت يا هذا، وفعلت يا هذا كذا" ولكن فجأة انقطع كلامه وبقي على تلك الحال حتى جاءه الشيخ أبا يعزى ومسح حلقه فطارت علقة من دم منه، واستطاع ساعتها التكلم، وتاب الرجل من حينه[2].

وفي نفس السياق يروي أبو جعفر محمد بن يوسف أنه قال: "قُلتُ يوماً في نفسي ما هذا الذي يصدر من أبي يعزى، فلأفعلن فعلاً لا يطّلع عليه أحد إلا الله تعالى حتى أعلم حقيقة ذلك... فلما وصلتُ ودخلتُ دار أبي يعزى وجدته يُصلي في بيته، فلما سلّم قال لي: يا محمد بن ورق أتغتابني؟ فقلتُ وما ذاك؟ فقال: ألم تقل في نفسك ما هذا الذي يصدر من أبي يعزى!"[3]

إن الملاحظ فيما سبق أن المكاشفة جعلت من الولي شخصاً يطّلع على ما لا يستطيع الشخص العادي أن يطّلع عليه، وهذا ما جعله يتعالى عن الانسان العاديهذا من جهة، ومن جهة أخرى عمِل الولي من خلال المكاشفة على أن يُرسي قيم الصلاح في المجتمع، لأنه وبمكاشفاته سيتجنب محيطوه فعل ما يتناقض والقيم الخيّرة خشية أن يفضحهم الولي بمُكاشفاته.

---

[1] التادلي، التشوف، ص166، 294.

[2] الصومعي، المعزى في مناقب أبي يعزى، ص133.

[3] التادلي، التشوف، ص221.

ولا ريب إذن حسب ما تقدم من نماذج سابقة تمظهرت من خلال الآليات التي اكتسب الولي سلطته الرمزية عن طريقها أن تنعكس على التصورات الذهنية ثم تتجسد في السلوكات والممارسات الجمعية، ولتأكيد هذا الطرح يتعين علينا أن نسوق عدة شواهد توضح لنا كيف ساهمت تلك الآليات مُجتمعة في تكوين صورة مُتخيلة عن الولي، وجعلته قبلة لعامة المجتمع وخاصته، عند خوفهم وأمنهم؛ في حياة الولي وبعد مماته.

ففي هذا الصدد يذكر أحمد بابا التنبكتي أن أبا مدين شعيب كانت "ترد عليه الوفود من الآفاق"[1]، نفس الشيء كان لأبي عبد الله الرجراجي الذي كان يقصده الناس من كل فج على وجه التبرك[2]، بل وحتى يمكننا القول إن الولي قد اتخذ صورة الحامي والحارس في المتخيل المغربي، حيث ورد لدى الونشريسي أن المغاربة كانوا يطلبون من الصلحاء أن يُقيموا في الأماكن والطرق التي تكثر فيها السرقات والحرابة من أجل ترهيب قطاع الطرق واللصوص "ودفع الفساد عن أهل الأمان"[3].

ولم تقتصر تلك الصورة في حياة الولي فقط وانما حتى بعد مماته حيث ذكر التادلي أنه حينما مات أحد أولياء سلا تنازع الناس في دفنه " وقال كل واحد إنما يُدفن في روضتي واجتمع خلق كثير لجنازته فطائفة تحمله إلى هذه الجهة وأخرى تحمله إلى جهة أخرى، وطال ذلك بينهم من أول وقت الظهر إلى وقت العشاء الآخرة"[4].

نستشف من هذا النص وما سبقه التمثُّل القوي لسلطة الولي الرمزية في المتخيل المغاربي في العصر الوسيط.

خاتمة:

بشكل عام يمكننا القول إن الولي كان له حضور رمزي قوي في المخيال الجمعي، وتأتى هذا من خلال شخصيته والكاريزما الخاصة به سواء في مأكله أو ملبسه، أو حتى طريقة عبادته، كما كان لحدّة الشروخ الحاصل بين العامة والسلطة دور كبير في احتواء الولي لتلك الجموع المتعطشة للمساعدة، وفي هذا الجو المشحون عمل الولي أن يكون المخلص والملجأ والملاذ لمجتمعه من خلال تظافر رموز الكرامة والبركة والدعاء، وبهذا كسب قاعدة شعبية كبيرة وصورة متعالية وسلطة رمزية في المخيال الجمعي.

---

[1] نيل الابتهاج، ج1، ص197.

[2] التادلي، التشوف، ص109.

[3] أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج2، 1981، ص403.

[4] التشوف، ص206.